انشطار الفضاء وتشظّي الهوّية في رواية "الصّدمة" لياسمينة خضرا

Space fission and Identity fragmentation in the novel “The Trauma” by the writer Yasmina Khadra

أ.د نبيل حويلي [1]
جامعة الجزائر2 أبو القاسم سعد الله

تاريخ الإرسال: 2023-12-28	تاريخ القبول:2024-01-29	تاريخ النشر:.مارس 2024

الملخص:

يعتبر التعدّد الإثنو-ثقافي من المعطيات القديمة لتاريخ البشرية، ونجد عبر التاريخ ساكنة تنتقل ومجموعات تختلط وأراضي تمّ ضمها أو التخلي عنها، وعمليات تبادل تجاري سبق إقامتها، وصيرورات إدماج سياسي تم تحقيقها، وحدود جرى تغييرها، وساهمت كل هذه الظواهر في هذا التنوّع الإثنو-ثقافي، وعلى هذا الأساس تستمدّ مداخلتنا شرعيتها في أن تكون فكرة الهوّية في عالمنا اليوم منشطرة ومتشظّية ومتعدّدة ومتنوّعة ولا يمكن حصرها في سياق واحد، وسنحاول في ورقتنا البحثية هذه رصد انشطار الفضاء وتشظّي الهوية والتعالق الثقافي (acculturation) في النصّ الرّوائي الجزائري المكتوب باللّغة الفرنسية وبالتحديد في رواية "الصّدمة" أو (L’attentat) للكاتب "ياسمينة خضرا" لأنّ الهوية في حقيقة الأمر هويات تتنازع على نحو واسع وعميق كما أنّها تتحدّد في عناصر الشخصيات والزمان والمكان.

الكلمات المفتاحية: الصّدمة، انشطار الفضاء، تشظي الهوية، شخصية "أمين"، فلسطين، إسرائيل

Abstract :

Ethno-cultural diversity is considered one of the ancient facts of human history, and throughout history we find populations that move, groups that mix, lands that are annexed or abandoned, commercial exchanges that were previously established, processes of political integration that were achieved, and borders that were changed, and all of these phenomena contributed to this ethno-diversity cultural, on this basis, our intervention derives its legitimacy from the fact that the idea of identity in our world today is divided, fragmented, multiple, and diverse, and cannot be confined to one context. In this research paper, we will attempt to monitor the division of space, the fragmentation of identity, and cultural interdependence in the Algerian fictional text written in the French language, specifically in the novel “The Trauma” Or (L'attentat) by the writer Yasmina Khadra, because identity is in fact identities that conflict widely and deeply, and are determined by the elements of personalities, time and place.

***Key words**:* The Trauma, Space fission, Identity fragmentation, a personality of Amin, Palestine, Israel.

*** *** ***

المؤلف المرسل: **نبيل حويلي**
nabil.haouili@gmail.com

مقدمة:

[1] جامعة الجزائر 2، أبو القاسم سعد الله nabil.haouili@gmail.com

إنّ التعدّد الإثنو-ثقافي من أقدم المعطيات في تاريخ البشرية، ولقد لاحظ علماء الأنتروبولوجيا اختلاط البشر والمجموعات السكنية عبر التاريخ كما نجد أراضي تمّ ضمها أو التخلي عنها، وعمليات تبادل تجاري سبق إقامتها بين الحضارات البشرية، وصيرورات إدماج سياسي تم تحقيقها، وحدود جرى تغييرها، وساهمت كل هذه الظواهر في التنوّع الإثنو-ثقافي، وتتّجه في الواقع إلى تطوير ما يسميه "إرنيست جلنير" (Ernest Gellner) مبدأ الوطنية بما في ذلك الملاءمة بين كيان وطني (وهو ما نعبر عنه أحيانا بالكيان المعنوي) والدولة اعتبارها وحدة شرعية.

وقد تعرف هذه التنقلات وعمليات الترحال تغييرا في حجمها وسرعتها، وقد تساهم كذلك في خلق ميولات غير معهودة، ولم يتم عبر هذا التاريخ الطويل، إنكار هذه التنقلات والعمليات بل استمرّت، بخلاف ذلك، وتضاعفت وتقوّت بفضل العولمة والضغوط الديناميكية الديموغرافية وموجات الهجرة. ويعتبر موضوع الهوية من المواضيع المتداخلة مع شتى المجالات والعلوم، والذي تقوم عليه الحياة الثقافية للأفراد والجماعات، فلا وجود لفرد أو جماعة دون وجود هوّية تحدّد انتماءهم. وعلى هذا الأساس تستمدّ مداخلتنا شرعيتها في أن تكون فكرة الهوّية في عالمنا اليوم منشطرة ومتشظّية ومتعدّدة ومتنوّعة ولا يمكن حصرها في سياق واحد، وسنحاول في ورقتنا البحثية هذه رصد انشطار الفضاء وتشظّي الهوية والتعالق الثقافي (acculturation) في النصّ الرّوائي الجزائري المكتوب باللّغة الفرنسية وبالتحديد في رواية "الصّدمة" أو (L'attentat) للكاتب "ياسمينة خضرا" لأنّ الهوية في حقيقة الأمر هويات تتنازع على نحو واسع وعميق كما أنّها تتحدّد في عناصر الشخصيات والزمان والمكان ... وممّا لا ريب فيه أنّ قضية الهوية قضّية رئيسية في الدّراسات الثقافية، من حيث إنّ هذه الدّراسات تدرس السّياقات التي يقوم الأفراد والجماعات داخلها ومن خلالها بتكوين هوياتهم أو فهمهم لذواتهم والتعبير عنها وحمايتها، ونتساءل عن الكيفية التي أثّر الفضاء في رسم ملامح الهويّة في رواية "الصّدمة"؟ وعن الكيفية التي جسّد فيها الرّوائي تشظّي الهوية؟

2. انشطار الفضاء مستوياته في رواية "الصّدمة" لياسمينة خضرا:

مصطلح الانشطار: إنّه من الصعب جدّا تحديد مصطلح "الانشطار" إن كان من جانبه اللّغوي أو الاصطلاحي أو حتى من خلال الدّراسات النّقدية المعاصرة، ولقد جاء في تنزيل العزيز: "... **فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ..."، الآية 144 من سورة البقرة، بمعنى**: اِجعل وجهك صوب المسجد الحرام أو اِجعل المسجد الحرام في نصف الدّائرة الّتي أمامك، فالشّطر هنا بمعنى الجهة أو النّصف. ووُرد في "لسان العرب" "لابن منظور" في مادة (ش،ط،ر) ما يلي: "الشّطر: نصف الشّيء، والجمع أشطر وشطور وشطرته: جعلته نصفين. وفي المثل احلب حلبا لك شطره، وشاطره ماله: ناصفه، وفي المحكم: أمسك شطره وأعطاه شطره الآخر"[1]، ونستخلص ممّا سبق أنّ الانشطار مشتقٌّ من مادة (ش،ط،ر) وجاء المصطلح يحمل معنى الانقسام والمناصفة ويوحي أيضا إلى دلالتين أخريين هما البعد والوجهة أو القبلة.

أمّا عن مصطلح الفضاء فيكاد يشكّل البؤرة الأساس في النقد الاصطلاحي، وقد وجد الكثير من الدّارسين والمختصّين التباسا كبيرا في تحديده، وهذا ما يشير إليه الناقد الجزائري "عبد المالك مرتاض" "**لا يكاد النقاد** الغربيّون يصطنعون مصطلح المكان إلاّ عرضا ولدلالات خاصّة، وعبر حيّز ضيّق من نشاطهم؛ أمّا المصطلح الشّائع والذي يعنونون به كتبهم ومقالاتهم فإنّما هو الحيّز بالمقابل الأجنبيّ الذي ذكرناه وترجمة (space/espace) بالفضاء في حال، والمكان في حال أخرى (مثل استعمال المصطلح الشّائع في النّقد العربيّ المعاصر جماليّة المكان)؛ ترجمة غير سليمة ولا دقيقة التمثّل للمعنى الأصليّ الأجنبيّ في رأينا على الأقلّ"[2]. وحاول النقد العربي وضع تعريفات كثيرة منها ما ورد عند "حسن نجمي" في كتابه "شعرية الفضاء"، حيث قال بأنّ: "فضاء تنتظم فيه الكائنات والأشياء والأفعال، معيارا لقياس الوعي والعلائق والتراثيّات الوجوديّة والإجتماعيّة والثّقافيّة ومن تلك التّقاطبات الّتي إنتهت إليها الدّراسات الأنتروبولوجية في وعي وسلوك الأفراد والجماعات"، والملاحظ هنا أنّ الفضاء واسع يضمّ اقتراحات كثيرة من مجموع الأشياء الموجودة، ومن هنا يمكننا الجزم أنّ الفضاء أوسع من المكان ومن الحيّز في حدّ ذاته، أمّا الحيّز (location) فإنّه يجمع بين المكان والفضاء فقد يكون اتجاها ومجالا وفضاءً وجوّا وفراغا وامتلاءً، فهو يتشكّل حتى من أدقّ التفاصيل الهندسية من أشكال وخطوط ورسوم تحمل في طيّاتها دلالات الحيّز، ويُطلق الحيّز أيضا على فضاء جغرافي أو أسطوري أو كلّ ما يند عن

المكان المحسوس كالخطوط والأبعاد والأحجام والأثقال والأشياء المجسّمة مثل الأحجار والأشجار والأنهار وما يعلو هذه المظاهر الحيزية من حركة أو تغيير.[3] فالحيّز –إذن- هو كلّ ما يشغل مساحة معيّنة وما يطرأ عنها من حركة وتغيير.

2.2 مستويات انشطار الفضاء في رواية "الصّدمة" لياسمينة خضرا:

يكتسح الفضاء الجغرافي مساحة شاسعة من الرّواية وهو الأكثر حضورا، ولقد وظّف الرّوائي الجزائري "ياسمينة خضرا" الفضاء في روايته "الصّدمة" بكثرة وأورده في شكل ثنائيات ضدّية تجمع بين عناصر متعارضة نتجت على إثر اصطدام حاد بين الشخصيات وأماكن الأحداث وقد أسهمت هذه المتناقضات في تكثيف الدّلالة للكشف عن خصوصية المكان وعمقه، إضافة إلى ذلك أنّها تشكّل الرّكيزة الأساسيّة لتمييز الواقع النّفسيّ والبعد الإجتماعيّ للشّخصيّة"[4]،فثنائيّة الانفتاح والانغلاق ترتبط بحالة الشّخصيّة(الإجتماعيّة والنّفسيّة) في الرّواية، وما تمرّ به من ظروف تفرض عليها الانتقال من مكان إلى آخر، فالمكان الإيجابي توجد فيه الرّاحة والعيش الهنيء،أمّا السّلبي فيكون فيه الحزن والكآبة وبالتّالي النّفور منه،فهناك أماكن مرفوضة وأماكن مرغوب فيها،فكما أنّ البيئة تلفظ الإنسان، وتحتويه، فإنّ الإنسان -طبقا لحاجاته- ينتعش في بعض الأمكنة ويذبل في بعضها. ففي هذه الرّواية نجد أنّ الرّاوي انتقل من هموم وطنه الجزائر إلى بلد يعاني ولا يزال من الاحتلال الصهيوني المغتصب ونعني هنا فلسطين، وحضر الفضاء متنوّعا بين المفتوح منه والمغلوق، ومن أمثلة ما وُرد ما يلي:

الشارع، إذ ذكر الرّاوي شوارع فلسطين وإسرائيل المفعمة بالنشاط والحيوية ولكنّها رغم ذلك تحوّلت صدفة وأصبحت ترعب المارة، بسبب تداول سلسلة من التفجيرات والصراعات الدّامية التي تتواصل ليل نهار، ويشير الرّاوي قائلا: "انقلب الشارع الذي كان منذ وهلة عامرا بالورع رأسا على عقب"[5] ويقول أيضا: "فجأة دوى انفجار هائل اهتزّت له الجدران، وارتجت الواجهات الزجاجية في المقصف ... قال أحدهم: إنّها حتما عملية تفجيرية"[6]، ويشير الرّاوي هنا إلى الانفجار الذي دقّ صوته الرّهيب وسط مدينة تل الربيع (تل أبيب) وبالضّبط في إحدى المطاعم بحي حكيرية. وكان الطّبيب "أمين الجعفري" –الذي يمثّل الشخصية الرّئيس في الرّواية- يحبّ التجوّل والمشي في هذا الشارع الواسع والمفعم بالحيوية، وكان يحتسي فيه القهوة أمّام الورود وأزهار الياسمين الذي تنبعث رائحته الطيّبة، وكان الجميع ينظر إليه نظرة إعجاب واحترام، ولكن الأمر لم يطل كثيرا إذ تحوّلت حياته إلى جحيم بعدما اكتشفت المخابرات الإسرائيلية أنّ زوجة الطبيب "سهام" هي من فجّرت نفسها بواسطة كمين ملغم، ليتحوّل الشارع إلى ممرّ مخيف وأصبح يخيف كلّ المارة ورمزا من رموز الموت والدّمار.

المدينة، وهي كل ما يتّصل بالمقاييس والمناحي الحضارية التي تتميّز بها المدينة عن غيرها من عوامل الاستقرار البشري، فهي لا تقوم إلا بوجود هيئة اجتماعية، تتميّز بسورها الذي يعني الأمن كملمح لوجود سلطة ونظام حكم، وأمّا من الناحية العلمية فهي: "عبارة عن سهل فسيح يحيط به الحرث من جهاته الأربعة وتتميّز بالخصوبة"[7]، وأشار الراوي إلى مجموعة من المدن الفلسطينية التي جرت فيها محور الأحداث لاسيما مدينة تل أبيب عاصمة دولة إسرائيل المزعومة أين كان البطل الروائي "أمين" يشتغل في إحدى مستشفياتها كطبيب، كما ذكر مدن جنين وبيت لحم أين جرت فيهما وقائع أخرى خاصة حينما أراد أمين البحث عن العلاقة التي ربطت زوجته سهام بالمنظّمات السّرية الفلسطينية، إنّها مدن تتراوح بين فضاء عربي فلسطيني وآخر عبري إسرائيلي ....

الوطن، يعتبر فضاءً مفتوحا وهو عبارة عن المكان الذي يرتبط به الشعب ارتباطا تاريخيا طويلا ويستطيع من خلاله تحقيق وجود هويّته ويمكننا أن نعرّفه على أنّه "فضاء أرضيّ يمارس الإنسان وسطه فعل الحياة، يتوطّن فيه ويتجذّر ويكوّن لنفسه هويّة تمثّل كيانه الّذي لا يتجزّأ منه، ومن هنا كان ارتباط البحث عن الهويّة بالبحث عن المكان، فالذّات البشريّة لا تكتمل داخل حدود ذاتها بل تنبسط خارج هذه الحدود حيث المكان الّذي يمكنها أن تتفاعل معه"[8]، والمتمعن في أجزاء الرّواية يرى أنّ بطلها "أمين" يعيش في فضاءين مختلفين تماما، فالأوّل هو دولة إسرائيل يشتغل فيها كطبيب في إحدى المستشفيات وكمواطن يؤدّي مهمّته في أحسن وجه ويكتفي بواجباته في مقابل الحقوق التي يُحظى بها كمواطن إسرائيلي يعيش في عاصمتها تل الربيع (تل أبيب)، ويشير قائلا: "منذ أيّام الجامعة أحاول أداء واجباتي كمواطن بأمانة"[9]، ومن خلال هذا الاستشهاد يتبيّن لنا أنّ "أمين" منضبط في دراسته ومزاولته لتخصّص الطب في الجامعة، وهو حريص على أداء واجباته في بلد يعيش فيه وكأنّه غريب على إثر الاحتلال الصهيوني الذي بات يسيطر على كافة الأراضي

الفلسطينية. ورغم هذا الأداء الصارم والتحاقه بقانون دولة إسرائيل لم يكن اندماجه مع المجتمع الإسرائيلي أمرا يسيرا بسبب الصّراع العرقي والإثني والدّيني وبالتالي الصّراع الهوياتي المتواصل بين فلسطين والكيان الصهيوني، وهو الأمر الذي أشار إليه "أمين" قائلا: "منذ سنتي الجامعية الأولى أدركت شراسة المسار الذي ينتظرني والجهود الجبارة التي عليّ أن أبذلها لأستحق المواطنة كاملة"[10]. يحيل البطل هنا إلى ثنائية متناقضة هي أنّه عليك أن تحقّق مواطنة من أجل الحصول على جنسية إسرائيلية، والغريب في الأمر أنّك تقيم في بلد غريب عنك وهو نفسه بلدك الأصلي. وهو الأمر الذي جعل البطل "أمين" يسعى لتحقيق الجنسية على حساب وطنه الأب أو وطنه الرّوح فلسطين وبالفعل تحصّل على تلك الجنسية من قبل الحكومة المزعومة، وتزوّج فيها وعاش حياة هنيئة سعيدة مع زوجته "سهام" إلى غاية اليوم الذي فجّرت فيه نفسها، فوجد أنّه كان متّصلا بالقضية الفلسطينية ورغم ذلك فقد بدا حائرا من أمره وحزينا لما حدث، وهو الذي صرّح في الكثير من المواقف بأنّ كلّ ما يعانيه البشر على سطح الأرض إنّما كان بسبب سوء تفاهم مجرّد سوء تفاهم ويقول: "كلّ مآسي البشر جرت بسبب سوء التفاهم ذلك ما يمن لك الله إيّاه، عليك أن تعرف كيف تردّه، لا شيء على الأرض ملك لك"[11] فمفهوم الوطن عند "أمين" يختلف كثيرا عن مفهومه لدى المناضلين الفلسطينيين وأخذ هذا الإهمال عن والده الذي لم يكن يكترث كثيرا للعادات والتقاليد وتحدّى الأجداد وأراد أن يخرج عن أعرافهم. وبالرّغم من أنّه رفض وتحدّى كلّ الاعتبارات المعنوية للوطن إلا أنّه يصرّح في أكثر من مناسبة أنّ الفلسطينيين محرومون وأن نصيبهم من فضاء الوطن غير مستوفى، وتغيّرت نظرته بمجرّد أن انتقل من تل أبيب إلى الضفة الغربية ويصرّح قائلا: "في تل أبيب كنت أعيش على كوكب آخر، كان قصر بصري يخفي عنّي جوهر المأساة التي تنهش بلدي، والتكريم الذي أحظى به يخفي حقيقة الفظيعة التي تقوم بتحويل أرض الله المباركة إلى مكب تتعفن فيه القيم الإنسانية"[12]. ويتناقض البطل الروائي "أمين" أخيرا مع شخصه حينما أقبلت السّلطات الإسرائيلية على اقتحام البيت العائلي الذي وُلد فيه وتربّى في أحضانه "في تلك اللّحظة التي انهار فيها جدار السور، جاش الغضب في داخلي وانقضضت على الجرافة، اعترض أحد الجنود طريقي، فدفعته بكلّ قوّة وتهجّمت على الوحش الذي يدمّر تاريخي"[13]، إنها انتفاضة على تدمير البيت الذي يشكّل الحقبة الرئيسية في تاريخ أي إنسان، إنّها الدّيار التي يرثيها كلّ شخص ويقف أمامها يتذكّر ما فيها من ذكريات أليمة وحليمة.

3. تشظّي الهوية في رواية "الصّدمة" لياسمينة خضرا:

1.3مصطلح التشظّي:

لم يرد هذا المصطلح في الموسوعة الثقافية للمصطلحات النقدية العربية على الرّغم من أهميته القصوى في تشكّل الهوية وانفصامها، ولقد جاء في "معجم الوسيط" ما يلي: "شظي: العودُ ونحوه انشق فلقا، والقوم تفرقوا ...، (شَظِيَ) الشيء: شقّقه فلقا، والقوم فرّقهم، (تشظّى) العود: تطاير قطعا. وقالوا تشظّى الصّدف عن اللّؤلؤ: تشقق عنه"[14]، وجاء بمعنى الانكسار والانحناء والتبعثر أمّا اصطلاحا، فهذا المصطلح حديث النشأة إذ ظهر مع التيار النقدي الأدبي الغربي ونعني به خروج الشيء عن شكله الطّبيعي إلى ما هو غير مألوف، ويفيد معنى الانفصال والانشقاق والتّبعثر، كما يفيد مصطلح التشظّي الخروج عن القديم ويعبّر عن حالات من الغربة والتشرّد والضّياع والهدم[15].

أمّا مصطلح الهوية: تعدّدت المصطلحات التي تفيد معنى الهوية وتكاد كلّ العلوم تستثمره، فأمّا لغة فوُرد ما يلي: "الهويّة: (هو) ضمير للغائب المفرد المذكر ويقال للمثنى (هما) وجمع المذكر (هم) ويقال للمؤنّث المفرد(هي) وللمثنى (هما) وللجمع (هن) والهويّة حقيقة الشّيء أو الشّخص المطلقة المشتملة على صفاته الجوهريّة وذلك منسوب إلى هو"[16]. أمّا اصطلاحا فالهوية تحمل معاني أكثر تعقيدا، ويمكن أن تختلف صياغة مفهومها كون سائر العلوم تستثمرها، وعرّفها "ريتشارد جنكيز" (Richard Jenkins) على أنّها جزء مكمّل للحياة الإجتماعيّة وهي تتشكّل فقط عبر التميّز بين مختلف الجماعات والّتي يمكن ربطها بأناس آخرين والاطّلاع على مختلف الهويّات يعطي إشارة عن نوع الفرد الّذي تتعامل معه ومن ثمّ كيفيّة الارتباط به، إنّ ما لدينا من فهم حول مختلف الهويّات ربّما يكون محدودا أو خاطئا، ولكنّه جزء حيوي من الحياة الإجتماعيّة كونه يجعل التّفاعل ممكنا ..."[17] وتمثّل الهوية أيضا الإحساس بالانتماء القومي والدّيني والإثني كما تتضمّن مجموعة من الخصائص التي تميّز كلّ شخص عن آخر، وتتحقّق عند انتماء ذلك الشخص جغرافيا وإقليميا واجتماعيا وتاريخيا ويشمل على الأصل والعقائد والعادات والتقاليد.

2.3 الاصطدام الهوياتي في رواية "الصّدمة" لياسمينة خضرا:

يرتبط مفهوم الهويّة الإجتماعيّة بمجموع الخصائص والمميّزات الّتي تجتمع في مجموعة بشريّة، تختلف بها عن غيرها من المجتمعات الأخرى، فهويّة أيّ شعب تتّحد بمطابقته لخصوصيّته وباختلافه عن هويّات الشّعوب الأخرى، بمعنى إنّ الفرد لا يستطيع العيش بمفرده إلاّ داخل مجتمع ولا يمكن عزل هويّته عن الجماعة الّتي ينتمي إليها، فالهويّة الإجتماعية هي شعور الأشخاص بالانتماء، حيث يتشاركون القيم والاتّجاهات والمشاعر. كما أنّ عمليّة بناء الهويّة الإجتماعيّة تشير إلى وجود تنظيم داخلي يهتمّ بالوضع الإجتماعي، فكلّما كان هذا الوضع دقيقا كان الفرد أكثر وعيا بتفرّده وتشابهه مع الآخرين.[18]

وإنّ قضية الهوية قضيّة رئيسية في الدّراسات الثقافية، من حيث إنّ هذه الدّراسات تدرس السّياقات التي يقوم الأفراد والجماعات داخلها ومن خلالها بتكوين هوياتهم أو فهمهم لذواتهم والتعبير عنها وحمايتها. وتعدّ الشخصية الحامل الرّئيسي للهوية الاجتماعية، ولعلّ ما يمكن أن نمثّل به في روايتنا هذه شخصية "أمين" الذي عان اغترابا نفسيا في المجتمع الإسرائيلي، إذ تعرّض لعدّة أشكال من النفي، أوّلها كان حينما أراد الكثير ممن يشتغلون في المستشفى إقصاءه من وظيفته ومحاولة إدانته لحظة حصول الانفجار الذي ارتكبته زوجته "سهام" في إحدى مطاعم حي حكيرية بالعاصمة تل أبيب. وهو لم يكن يدري إطلاقا أن زوجته تشارك في الهيئات السّرية الفلسطينية، يقول الرّاوي: "فجأة دوى انفجار هائل اهتزّت له الجدران، وارتجت الواجهات الزجاجية في المقصف ... قال أحدهم: لا بدّ وأنّها عملية تفجيرية لا محالة"[19]، وهي حادثة أدّت إلى سقوط ضحايا وإصابات كثيرة في الوسط الإسرائيلي، وبمجرّد مرور وقت قصير بدأت التقارير الأوّلية تصدر بيانات تظهر حجم الخسائر البشرية "بعد انقضاء عشر دقائق عن الانفجار، بدأت التقارير الأوّلية تفيد عن مجزرة حقيقية أفاد بعضهم عن حافلة تعرّضت لهجوم، وبعضهم عن انفجار مطعم في وسط العاصمة، بل تأكّد الأمر، عزر بن حاييم: لقد فجّر أحد الانتحاريين نفسه في مطعم، سقط العديد من القتلى والكثير من الجرحى"[20].

ولقد تفاعلت الشخصيات الفلسطينية والإسرائيلية في تشكيل أحداث رواية "الصّدمة" وحقّقت امتزاجا هوياتيا صريحا، ولكن إذا ما تمعنّا النظر جيّدا نجد أنّ هذا التنوّع في حدّ ذاته قد حقّق المستوى الأوّل للتشظّي، إذ إنّ دولة فلسطين بحدودها المعروفة أصبحت تحوي على عنصرين ثقافيين وعرقين مختلفين تماما لغويا ودينيا وثقافيا واجتماعيا، ومن الشخصيات الواردة في ثنايا الرّواية ما يلي: البداية مع الشخصية الإسرائيلية مثل: "عزرا بن حايم" وهو مدير المستشفى الذي يعمل فيه "أمين"، رجل نشط ويقظ ويلقب بالرّقيب نظرا لحرصه الشديد في أداء وظيفته. وشخصية "كيم يهوذا" وهي طبيبة تشتغل في ذات المستشفى زميلة "أمين" منذ أيّام الجامعة وتتميّز بالدّهاء والفطنة، و"إيلان روس" وهو طبيب يشتغل مع "أمين" ويكنّ له الكره والعدوانية لكونه عربيا ويسعى دوما إلى تحقيره وتذليله والتقليل من شأنه. كما نجد شخصية "دافيد رونين" وهو مسؤول رفيع في جهاز الشرطة، وهو منضبط وصارم في عمله ومن أعزّ أصدقاء "أمين" يكنّ له الاحترام رغم الفرق العرقي القائم بينهما، عكس النقيب "موشي" الذي يبدي كرها دون سابق إنذار لكلّ ما هو عربي فلسطيني خاصة لشخصية الطبيب "أمين"، وشخصية "بن يمين" المسالمة الذي أراد إنشاء مساعي السّلام بين الطرف الإسرائيلي والفلسطيني. كما عرفت الرّواية تداول شخصيات فلسطينية أهمّها بطل الرّواية "أمين الجعفري" وزوجته "سهام" التي تنشط في خلية سريّة للقضية الفلسطينية وشخصية "ليلى" أخت "أمين" بالرضاعة وكذا شخصيتي "إمام المسجد" و"أبو مقاوم" قائد الحركة السّرية، بالإضافة "قائد الحركة بمدينة جنين" والخال عباس" وأيضا شخصية "جميل" الذي كان يصطحب "أمين" بضواحي جنين ليريه الأماكن التي نسيها بفعل اغترابه.

ويتعرّض "أمين" لمواقف أخرى تفيد هذا النفي الذي يتعرّض إليه، ويظهر جليّا في هذا المقطع من الرّواية: "زمجر وهو يدفعني بيد حقودة قائلا: أفضّل الموت على أن يلمسني عربي ...، الجريح: لا تلمسني إيّاك أن تضع يديك عليّ، وبصق عليّ"[21] ويعبّر هذا المقطع عن الكره الشديد الذي يكنّه الكثير من اليهود للعرب، والكثير من هؤلاء يبدون عداوة حادة للفلسطينيين الأمر الذي أوجد فروقات عنصرية داخل الكيان الصهيوني حيث يعيش هذا الكيان في ظلّ صراع طبقيّ قائم على النّزاع وفقدان التّوازن بين أفراده، إذ إنّ "الصّراع الطّبقي في المجتمعات المستضعفة يشكّل ظاهرة بارزة، حيث تتّخذ كلّ طبقة اجتماعيّة، وكلّ فئة من الفئات نظاما ومنهجا إيديولوجيّا يؤطّر فكرها ويحدّد مسارها"[22]، فالتمييّز بين الطّبقات الإجتماعيّة مبنيّ على أساس الموقع الإجتماعي حيث تتشابه كلّ بنيّة في مجموعة من الخصائص الإجتماعيّة والثقافيّة التي تميّزها عن غيرها من الجماعات المكوّنة للمجتمع الإسرائيلي والفلسطيني معا.

ويمكن لنا أن نشير إلى موقف آخر من هذا النّفي الذي تعرّض له "أمين"، وهو الذي حدث مع الشرطي الذي عامله بعنف وخشونة شديدة وتمادى على أخلاقية المهنة، إذ لاحقه الشرطي واستوقفه "أمرني الشرطي الأوّل قائلا: أخرج من مركبتك وقف أمامها ... قذفني بعنف على سقف السّيارة ثم باعد بين ساقي بقدمه وأخضعني لتفتيش همجي"[23]، خاصة حينما علم الجميع أنّ منفّذ الانفجار هو زوجته "سهام" وأحد أقربائه من العمومة، فتعرّض لكلّ أنواع الضرب والشتم والإهانة ومن العبارات الواردة التي استخدمها الإسرائيليون: إرهابي قذر، حثالة، مجرم ... وكلّها تحمل معاني ثقيلة من التجنيس الهوياتي الذي تعرّض له "أمين". وإنّ كلّ هذه المظاهر الإجتماعيّة الّتي عاشها من تهميش وعنصريّة واحتقار وعدم القبول وسط المجتمع الإسرائيلي أدّت إلى تأزّم الهويّة الاجتماعيّة لديه "وهذه الأزمة في الهويّة تنشأ لدى الفرد نتيجة لعجزه على التكيّف مع الواقع الاجتماعي الّذي يعيش فيه"[24]، فعدم قدرة الفرد على التّعايش والتكيّف مع واقعه الاجتماعيّ يُحدث له ارتباكا في توازن هويّته وبالتّالي تأزّمها.

3.3. الصّراع الثقافي:

تتلخّص الهوية الثقافية في جملة من الخبرات الإجتماعيّة والحكمة الأخلاقيّة والدّينيّة الّتي يصوغها مجتمع ما؛ بحيث تصبح تلك الخبرات الإجتماعيّة والحكمة الأخلاقيّة قوانين ملزمة لا يمكن اختراقها والعبث بها[25]. وممّا لا ريب فيه أنّ فلسطين تعرّضت إلى جانب الاحتلال العسكري إلى غزو ثقافي أراد أن يشمل قطاعات كثيرة من الثقافة، ويمكن لهذا النوع من الاستعمار أن يكون أكثر خطورة من سابقه. وهو احتلال شديد القسوة يقوم على تهويد المدن الفلسطينية وإخفاء معالمها الحضارية العربية منها والإسلامية وحتى الكنعانية والفلسطينية، ويكون ذلك عبر مراحل متتالية ومع الاستيطان الصهيوني السريع ليس فقط في فلسطين بل حتى في الأراضي الفلسطينية التي تبقّت عليها على إثر حرب 1967. ويتمّ ذلك مثلا عبر تهديم البنايات التاريخية وأثارها العمرانية وبناء مستعمرات بدلا منها. وتقول امرأة فلسطينية مجيبة "أمين": "إنّ الإسرائيليين لن يتوقّفوا أبدا عن تهديم بيوتنا لاسيما القديمة منها والتي تفوح منها الأصالة، ألم تعرف وأنت في غربتك أنّ الخطر بلغ ذروته"[26]، إنّها شهادة امرأة عانت الغزو العسكري والثقافي وتقرّ أنّ الثاني يهدّد فعلا بقاء فلسطين على خط الخريطة. وبالتوازي يتمّ تضييق الخناق على الفلسطينيين من أجل ترك منازلهم أو إجبارهم على إمضاء عقود البيع بأرخص الأثمان، ولعلّ تهويد مدينة تل الربيع (تل أبيب) خير دليل على هذا الغزو، إذ أضحت مدينة إسرائيلية بكلّ المواصفات وحرّم فيها بناء المساجد على حساب اتّساع رقعة دور الكنائس اليهودية المنتشرة هنا وهناك، ونفس الأمر حدث لمدن أخرى كحيفا وأخيرا عاصمة فلسطين مدينة القدس، هذه البوتقة الشريفة التي عرفت تعايش الأديان لفترة طويلة إذ أصبحت تحت وقع التهويد.

كما ظهرت مجموعة من العادات والتقاليد كمنظومة ثقافية في صفحات الرّواية تنتمي إلى موروث ثقافي شعبي فلسطيني أصيل، إذ إنّ فلسطين تزخر بمقوّمات تراثية مادية وغير مادية هائلة أنتجتها التراكمات الثقافية المتوالية عليها والحقب الزمنية المتلاحقة. وجاء على سبيل المثال الارتباط الوثيق بين الفلسطيني وأشجار الزيتون الباسقة التي تعلو كلّ الأشجار عمرا وأصالة، ويقول "أمين": "أتذكّر أشجار الزيتون الباسقة تلك، كانت تعلو سائر الأشجار، نتسلّقها ونلعب فوق أغصانها، وأتذكّر موسم جني الزيتون، الكلّ يشارك صغيرا كان أم كبيرا، إنّها بمثابة تظاهرة احتفالية"[27] يتوخّى "أمين" من خلال هذا الاستشهاد الحذر أخيرا، إذ عرف مدى غلاء سعر التراث والموروث الذي ينضب بسهولة ويقف مسترجعا ذكريات الطّفولة، كما يتذكّر أيضا أزقة مدينة بيت لحم وكلّه شوق وحنين إليها، والمنافذ التي يمرّ عبرها الحجاج ريثما يحنّ موعد الحج والعمرة وزيارة الأماكن المقدّسة ...

4.خاتمة:

وصفوة القول أنّ الرّوائي "ياسمينة خضرا" صوّر لنا طبيعة الصّراع الذي يحكم بين الشخصية الفلسطينية والآخر أي الشخصية الإسرائيلية، كما وظّف الفضاء وانشطاره بين البلدين اللّذين يمثّلان في الحقيقة بؤرة ملتصقة أي كيانا واحدا هو فلسطين. كما خلق الرّاوي شخصيات حاولت استحداث مساعي التعايش عند الطّرفين وعلى رأسهم بطل الرّواية "أمين الجعفري" حينما أراد البحث عن هويّته المفقودة ذات يوم، غير أنّه وحينما تضطرب الهوية بسبب السّطوة الإجتماعيّة أو القهر أو حتّى التّهميش الإجتماعيّ لبعض فئات المجتمع، ينعزل الفرد وتقلّ فاعليّته في المجتمع، فينفصل عن التّركيبة الإجتماعيّة ممّا يولّد لديه شعورا بالاغتراب وبالتّالي الإخلال في توازن هويّته.

5. الهوامش:

[1] ابن منظور جمال الدّين محمّد بن مكرم، لسان العرب، المجلد 4، دار صادر، ط3، بيروت، 2004، ص78.
[2] عبد المالك مرتاض، في نظريّة الرّواية بحث في تقنيّات السّرد، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد 240، 1998، ص121-122.
[3] ينظر: عبد المالك مرتاض، ألف ياء تحليل مركب لقصيدة ابن بلادي لمحمّد العيد آل خليفة، دار الغرب للنّشر والتوزيع، ط1، وهران، 2004، ص117.
[4] أوريدة عبّود، في القصة الجزائريّة الثّورية (دراسة بنيويّة لنفوس ثائرة)، دار الأمل، ط1، تيزي وزّو،2009، ص43.
[5] ياسمينة خضرا، رواية: الصّدمة، دار الفرابي، بيروت، ط1، 2007، ص19
[6] المصدر نفسه، ص20-21.
[7] إسماعيل سامعي، معالم الحضارة العربية الإسلامية، ديوان المطبوعات الجامعية، ط1، الجزائر، 2007، ص345.
[8] جميلة الشّريف، مكوّنات الخطاب السّردي "مفاهيم نظريّة"، عالم الكتب الحديث، ط1، إربد، الأردن، 2011، ص39.
[9] ياسمينة خضرا، الصّدمة، ص113.
[10] المصدر نفسه، ص114.
[11] نفسه، ص185.
[12] نفسه، ص131.
[13] نفسه، ص285.
[14] إبراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدّولية، ط1، بيروت، 2004، ص483.
[15] ينظر: فاضل ثامر، شعريّة الحداثة من بنية التّماسك إلى فضاء التشظّي، دار المدى، ط1، بغداد، 2012، ص10.
[16] مجموعة من الباحثين، المنجد في اللّغة والأعلام، دار المشرق، ط2، بيروت، 2000، ص875.
[17] ينظر: هارلمبسوهولبورن، سوسيولوجيا الثّقافة والهويّة، تر: حاتم حميد محسن، دار كيوان،ط1، دمشق، 2010، ص93-94.
[18] ينظر: عادل عبد الله محمّد، دراسات في الصحّة النّفسيّة (الاغتراب، الهويّة، الاضطرابات النفسيّة)، دار الرّشاد، ط1، القاهرة، 2000، ص10.
[19] ياسمينة خضرا، الصّدمة، ص19.
[20] المصدر نفسه، ص23.
[21] نفسه، ص24.
[22] إبراهيم عبّاس، الرّواية المغاربيّة الجدليّة التّاريخيّة والواقع المعيش "دراسة في بيت المضمون"، المؤسّسة الوطنيّة للاتّصال، ط1، الجزائر، 2002، ص61.
[23] ياسمينة خضرا، الصّدمة، ص29.
[24] شريف كناعنة، دراسات في الثّقافة والتّراث والهويّة، تحقيق: مصلح كناعنة، المؤسّسة الفلسطينيّة للدّراسات والنّشر، ط5، بيروت، 1974، ص57.
[25] ينظر: فاطمة الزّهراء سالم، نحو هويّة ثقافيّة عربيّة إسلاميّة (التّداعيات والتّحوّلات)، دار العالم العربي، ط1، القاهرة، 2008، ص31.
[26] ياسمينة خضرا، الصّدمة، ص189.
[27] المصدر نفسه، ص177.